قراءة في شروط نهوضنا الحضاري وتضاياه

طه جابر العلواني

الحمد لله رب العالمين، نستغفره ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم رسل الله، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه واهتدى بهديه إلى يوم لقائه، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن حالة الغثائية التي نعيشها، ومع ذلك نفكر في شروط النهوض الحضاري، مؤشر صحي جيد ليس الفضل فيه لنا، ولكن الفضل فيه لهذا الدين ولهذه الرسالة التي أكدت حتمية ظهورها على الدين كله "هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله". ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إن هذا الدين ظاهر وأنه لن يبقى بيت مدر أو حجر إلا ودخله هذا الدين بعز عزيز أو ذل ذليل". فإذا بنا ونحن في حالة الغثائية والاتسحاق نفكر بالنهوض وبالشهود الحضاري، فهذا الفضل إذن، لا يعود إلينا، وإنما يعود إلى الدين الذي ننتمي إليه، دين الهدى ودين الحق.

أعود الآن إلى تلك الشروط التي نبحث عنها باختصار، محاولاً أن لا أتجاوز ما حدد لي من وقت. هذه الشروط، فيما أرى، شرطها الأول القراءة: لا أعني بالقراءة مجرد القراءة أو الكتابة، ولكني أعني قراءة القرآن، فنحن أمة لم تكن شيئاً مذكوراً قبل القرآن الكريم؛ بدأ وجودنا بكلمة كن، وانبثقت أمتنا عن «إقرأ» وقام كياننا وحضارتنا كلها، فكرةً وتصوراً وعقيدةً وشريعةً ومنهاجاً ونظاماً، بدءاً من «إقرأ» إلى قوله جل شأنه "ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها"؛ فرسالتنا وحضارتنا وكياننا ومنهاجنا ونهوضنا وحركتنا كلها محكومة بالقراءة منبثقة عنها. فإننا أمة القراءة، منها تألفت رسالتنا، وعليها قامت أمتنا، وبها قام نموذجنا الحضاري كله. إن أحسنّا القراءة حققنا أهدافنا، وإن أسأناها أخطأنا السبيل وضللنا الطريق؛ فأي «قراءة» نريد؟ المسلمون يقرأون القرآن اليوم بكثرة، ويستمعون إليه بكثرة، بعضهم يختم القرآن في أسبوع، وبعضهم في شهر، ويتسابقون في ختمه وتلاوته، ويتلونه في أعراسهم وأفراحهم وأتراحهم، إضافة إلى تلاوته في صلواتهم، ولكن ربنا سبحانه وتعالى ضرب لنا مثلاً في خصومنا المناهضين، بني إسرائيل "مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً". والمسلم اليوم، يحمل القرآن، ويسجّله، ويستمع إليه، ولكنه لا يقرؤه على وجه الحقيقة. القراءة التي أمر الله بها وبدأ بها "إقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. إقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم"، "سنقرؤك فلا تنسى". لقد جمع بين عملية الخلق وعملية القراءة، وأن تكون القراءة باسم الله تعالى. فالمسلم إنسان قارئ يقرأ الكون بالقرآن؛ فهذه الأرض، السماوات، الكواكب، الأفلاك، الطبيعة، كلها يتجه إليها بالقرآن، ويقرأها باعتبار أن القرآن معادل للكون. فالله سبحانه وتعالى أنزل قرآناً وخلق كوناً، «قل سيروا في الأرض ثم انظروا». هذا النوع من القراءة، القراءة التي يقرأ فيها القارئ الكون بالقرآن، يلازمها أن يفهمه بالكون كذلك. فكلاهما

كتاب الله جل شأنه، كتاب مسطور وكتاب منثور. وعندما يجمع الإنسان بين القراءتين، تتشكل القراءة الواعية، التي يمكن أن تبني فكراً، وتوجد منهجاً، وتحدث بعد ذلك حضارة؛ أما قراءة الهذرمة التي ألفناها والقراءة التي اعتدنا عليها، فإنها ليست بمغنية عنا، لا في دنيانا ولا آخرانا، وإن كانت تصح بها الصلاة، ويحصل فيها حق التبصر.

القراءة التي نريدها، قراءة تسمح بإعادة تشكيل العقل المسلم ،وتساعده على بناء نسق منهجي معرفي ثقافي جديد، يسمح باستيعاب وتجاوز ما أنتجته العقلية الثنائية في الماضي. سعدت بكلمة السيد محمد حسين فضل الله، ودعوته المخلصة للتوحيد بين المسلمين، ولكنني، وإن أردت أن لا أكون متشائماً، لا آمل في تحقيق وحدة المسلمين، وهم يحملون كل هذا الركام الهائل من الأفكار المتضادة المتناقضة، المتعارضة، المتضاربة، والجمع بينهم إنما جمع بين قنافذ. فمن عادة القنافذ إذا حاولت أن تحتمي ببعضها، فما تلبث أن ينخس بعضها بعضاً بعد قليل، فحتى إن تآلفت آنياً، تحت أي ظرف من الظروف، فإن عراها لا تلبث أن تنفك. فهذا الموروث، موروث الثنائيات المتقابلة، في علم الكلام، وفي علم الفقه، وعلم الأصول، وفي غيرها من تراثنا التفسيري والحديثي والشروح التي تلقيناها، هذا الركام الهائل، لا بد من النظر فيه، على ضوء كتاب الله وعلى هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومحاولة القراءة التي تجعلنا نتجاوزه، بعد أن نستخلص منه ما يتقبله القرآن ويرضاه. فما أنتجته عقلية التقليد في واقعنا التاريخي، لا يمكن أن يساعد على بناء نهضة. إنه تراث مرحلة جيدة، قد مضت بما لها وبما عليها، وإن إعادة إنتاجه، وبناء نهضة معاصرة عليه، ضرب من المحال، ضرب من العبث. فمطلوب اتجاه مخلص جاد إلى كتاب الله واستثارته، ومحاولة استخراج معانيه، وبناء عقل مسلم على هديه، قادر على تجاوز ذلك الماضي بكل أوغاره وبكل ماضيه.

كما نريدها «قراءة» تساعدنا على تجاوز النموذج الراهن للحضارة الغربية، وهو نموذج معرفي علماني مغلق، وفي الوقت ذاته، يفرض علينا تبعية الآخرين. إن كل أدمغتنا وعقولنا محشوة به ونحن نشتمه ونلعنه، ولكننا نتنفسه ونفكر به، ونأكله ونشربه، ونلبسه، ينام معنا، يصحو معنا، هو علماني لايصلي لكن حتى في صلاتنا هو معنا، لأن تلك ثقافتنا، مكونات العقلية المعاصرة هي هذه. لو استخدمت مناهج التحليل المعاصرة اليوم، ورجعت إلى الفترة النبوية الشريفة ونظرت إليها بمناهج التحليل هذه، لقلت إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس له أن يبدأ بالدعوة إلى التوحيد؛ عليه أن يبدأ باستثارة الطبقات المستضعفة مثلاً، وعليه أن يبدأ بتثوير هذه الطبقات المستضعفة من العبيد والأرقاء، الطبقات الضعيفة أو المسحوقة في المجتمع لكي يحدث الثورة المطلوبة، أما الفكر والعقيدة والتوحيد فسوف يأتي في الطريق، وسيتعلمه الناس خلال الثورة ومعها. لكن الأمر مختلف، الله قد بدأ مع رسوله بإقرأ، "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير"، فهذا النموذج الغربي لا بد من تجاوزه. لكن لا بأن نأخذ بعضه لنتجاوز البعض الآخر، فأوظف الليبرالي لتجاوز الاشتراكي أو العكس. وإنما تجاوزه بالقرآن الكريم، تجاوزه بالقراءة للقرآن العظيم.

بعد القراءة لا بد من بناء المنهج، وهذا هو الشرط الثاني من النهوض. والمنهج الذي نريده هو منهج معرفي قائم على الجمع بين القراءتين ودمجهما: قراءة الكون وقراءة القرآن معاً. حين قرأت الحضارة الغربية الكون وحده، انتهت إلى هذه النهايات الفلسفية المفجعة، وقامت بعملية التفكيك لكل شئ بما في ذلك الدين، ثم عجزت عن عملية الترتيب، ووقفت حيرى لا تستطيع أن ترتب ما فككت، كإنسان قليل الخبرة، لا يعرف كيف يرتب نافذة سيارة أو غيرها، قام بتفكيك سيارته ثم لم يعد يعرف كيف يعيد ترتيبها. وهو يحاول الآن أن يستعيد كل تراثه الفكري، من أجل أن يقوم بعملية الترتيب هذه، لكنه عاجز. فالمطلوب إذن منهج قرآني، يستطيع أن يمكن الإنسان من عملية الترتيب. فأزمة الحضارة اليوم

أزمة مزدوجة: على المستوى الإسلامي ومستوى المسلمين، نحن في أزمة. لا شك في هذا، وزميلي الأستاذ عادل مهدي أشار إلى كثير من أبعادها، ولكن الحضارة الغالبة، الحضارة الغربية، هي الأخرى في أزمة لا تعرف الخروج منها، سقط شقها الفلسفي العاقل الذي أمد فكرها في نهاياتها الفلسفية، وأما شقها الآخر فهو يعيش مأزق، ويحاول أن ينتج من الفكر الجزئي ما يستطيع من رقع، يستطيع أن يعالج بها، بشكل حرج وخطر وسريع، ما يعتري حضارته من عيوب، لكن هذا لا يمكن أن يستمر إلى فترة طويلة. فالسقوط محقق في هذه الحالة إلا أن يأتي منهج جديد، وهذا المنهج لا يمكن أن نجده في أي مجال إلا في القرآن العظيم، وبدون أن يُقرأ هذا القرآن العظيم قراءة معرفية، تسمح باستنباط هذا المنهج، وربط معارف وعلوم الإنسان به، وتحكيمه فيها، لا يمكن إطلاقاً أن يخرج العالم من أزمته المعاصرة بكل جوانبه.

الشرط الثالث، وجود نسق معرفي يعمل على الدمج بين القراءة بشقيها والمنهج المنبثق عنها، ويقدم تصوراً كلياً عن الكون والإنسان والحياة، يصحح به كل تلك التصورات الخاطئة التي امتلأت بها أدمغة الناس: امتلأت بها أدمغة المسلمين من خلال تراثهم الكلامي الفلسفي، وامتلأت بها أدمغة الغربيين كذلك من خلال ما أنتجوه. هذا النسق المعرفي الثقافي الذي سيعيد بناء العلوم الاجتماعية والإنسانية المعاصرة؛ لكي يتمكن الإنسان من إعادة تشكيل عقله التشكيل المناسب، الذي يجعله منسجماً مع الغيب ومع الكون: الانسجام الذي أراده الله سبحانه وتعالى عن هذا الوجود "وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم"؛ فتنتهي عملية الصراع بين الإنسان والكون، وتنتهي عملية تجاهل الإنسان واستكباره على الغيب وتجاوزه له. وبدون هذا لا يمكن إعادة تشكيل عقل قادر على بناء الحضارة، وبناء الأمة المخرجة على ضوء ذلك.

إن الأمة المسلمة هي أمة مخرجة، «أخرجت للناس»، وهي ليست أمة منطوية على ذاتها. الله سبحانه وتعالى حينما خاطب بني إسرائيل خاطبهم بأنفسهم " إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين" في الحالة الإسلامية لم يكن هناك أن الله اصطفى قريشاً مثلاً أو اصطفى العرب على العالمين، إطلاقاً، وإنما قال "كنتم خير أمة أخرجت للناس، تأمرون بالمعروف، وتنهون عن المنكر، وتؤمنون بالله". لم تُربط عملية الخيرية لا بعرق ولا بنسب ولا بموقع، وإنما رُبطت بصفات يمكن أن تتحقق، ويمكن أن تزول. فهذه الأمة المخرجة التي تبنى على الدمج بين القراءتين، وعلى المنهج المعرفي القرآني، وبالنسق المعرفي المنبثق عنه، والتي تتحرر في الاستلابين: الاستلاب التاريخي والاستلاب الجغرافي. هذه الأمة المخرجة لن تكون خيراً لنفسها فحسب، وإنما تكون خيراً للدنيا كلها، لأنها أمة تدرك البعد العالمي، تدرك امتدادها العالمي ومسؤليتها عن العالم. وهنا أحب أن أنبه إلى بعض القضايا:

القضية الأولى: نحن نخطئ، وربما نسأل أمام الله، حينما نوظف الإسلام لقضايانا القومية أو الوطنية أو الحزبية أو الإقليمية أو الطائفية، علينا أن نخرج من هذا الشعور، ونحاول أن نوظف أنفسنا لله، فالله سبحانه وتعالى يقول "سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً"، ويقول "يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإسلام". فنعمة من الله أن أصبحنا مؤمنين، نعمة من الله أن منّ الله علينا بالإسلام، وحرام علينا أن نتبدل الإسلام ونوظفه لأغراضنا المختلفة. نحن نندد، باستمرار، بعالم السلطان الذي يوظف فقهه وعلمه ودينه من أجل أن يحصل مثلاً على شيء من الحطام أو المتاع من حاكم أو سلطة ونحوها. يجب أن نعرف أن توظيف الإسلام أحياناً يكون توظيفاً جماعياً. أحياناً يوظف الإسلام فئة أو حزب أو دولة أو شعب أو غيره. ينبغي أن نعكس الأمر، بدلاً من أن نوظف الإسلام، نوظف أنفسنا للإسلام. والفرق كبير بين الأمرين.

1992-11-07 05:15

القضية الثانية: في تأكيد البعد العالمي: إن شريعتنا هذه هي شريعة تخفيف، ولكن ليس التخفيف بما أعنيه أنا أو أي أحد، ولكن تعالوا إلى القرآن "واختار موسى قومه سبعين رجلاً لميقاتنا، فلما أخذتهم الرجفة قال ربِّ لو شئت أهلكتهم من قبل وإيّاي، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا، إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء، أنت وليّنا فاغفر لنا وارحمنا، وأنت خير الغافرين" و " الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمّيّ، الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن المنكر، ويحل لهم الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون". والبعد العالمي، حين نفكر بالامتداد، وبكسر الهيمنة الغربية، حضارياً ومنهجياً وفكرياً وثقافيا ومعرفياً، نحن بحاجة ماسة لأن نتذكر هذا البعد، عن الأمة المخرجة التي تحمل كل معاني التحرر والتخلص من كل وسائل القمع والاستبداد، ومن كل وسائل الضغط على العقل والقلب والشعور، من كل القيود والإحن والأغلال. إن أي نسق معرفي مغلق مصيره إلى الانهيار أو الكسر. والأنساق التي تفرزها القضايا الكلامية والفقهية المحددة أنساق توصل إلى معارف مغلقة ولو بشكل جزئي. وحينما تكون عقلية في إطار نسق مغلق، فلا يمكن إطلاقاً أن تكون عقلية قادرة على تفكير منهجي أو بناء حضاري. ومن مآزق هذه العلمانية أنها أوصلت إلى نسق مغلق لا يمكن إلا أن تكسره وتتجاوزه وإما أن تعيش في أغلاله. والذين منّ الله عليهم بأن يتجاوزا الإحن والأغلال التي كانت عليهم، هم أولى الناس بأن يكون نعتهم المعرفي والثقافي نسقاً مفتوحاً قادراً على امتصاص كل أنواع التنوع والتعدد واحتوائها. أما الأنساق المحكومة بالتراث الكلامي، وبكثير من معدلات التراث الفقهي، فإنها أنساق لا يمكن أن تستجيب لمقتضيات الحياة.

في مرحلة الوعي التي نحن فيها، لو أردنا أن نؤرخ للعقل الإنساني، نستطيع أن نميز بسرعة وباختصار ثلاث مراحل: المرحلة الإحيائية، ثم مرحلة المتقابلات الثنائية، ثم مرحلة انفجار المعرفة والمنهجية التي نعيشها اليوم. والعقلية التي يعيشها إنسان اليوم في كل مكان، لا يمكن أن تواجه إلا بمنهجية معرفية مستمدة من القرآن العظيم، قادرة على تقديم منهج يمكن أن يضبط إيقاعات الفكر الإنساني؛ معارفه وعلومه، ويمكن أن يساعد هذا الإنسان على بناء حضاري سليم. أقول قولي هذا واستغفر الله العظيم.